

الجمعة 23 جمادى الآخرة 1442 الموافق 5 فبراير 2021

من إعداد الإمام : نجيم أوحادوش

مَكَانَةُ الْعَقْلِ فِي الْإِسْلَامِ

يقول الحق تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: 70).
قال الإمام القرطبي المالكي في متعلق التكريم: والصحيح الذي يُعَوَّلُ عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يُعرفُ الله، ويُفهمُ كلامه. (تفسير القرطبي)
وعن عبيدالله بن مَحْصَن قال، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرِّهِ، مُعَافَى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوْتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حَبِزَتْ لَهُ الدُّنْيَا» (أخرجه الترمذي).

إخوة الإسلام

إن من أبرز ما كَرَّمَ اللهُ به الإنسان وَفَضَّلَهُ به على سائر مخلوقاته: العقل، الذي يميز به بين المنافع والمضار، والمصالح والمفاسد، وهو وسيلة كمال لا يُسْتغْنَى عنها طرفة عين في أمور الدين والدنيا. كما قال الْمُتَنَبِّي:
لَوْلَا الْعُقُولُ لَكَانَ أَذَى ضَيَعِمٍ
أَذَى إِلَى شَرَفِ مِنَ الْإِنْسَانِ

وقد عَلمَ العقلاء قيمة العقل وفضله، فقال عبيد الله:

مَا أُوتِيَ رَجُلٌ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنَ الْعَقْلِ. (ابن أبي الدنيا - العقل وفضله 1-32)

وإذا أراد العبد أن يَعْرِفَ فَضْلَ اللهِ عليه بهذه المِنَّة فلينظر إلى من سَلِبَهَا كالمجانين وأصحاب الآفات العقلية، والأشياء تُعرف بأضدادها، مِمَّا يَسْتَوْجِبُ دَوْمًا حمد الله وشكره على نعمه.

إخوة الاسلام

لقد إعنتى الإسلام بالعقل إعتناء كبيراً، ورفع شأنه وأعلى مكانته، ولهذا الإهتمام الإسلامي بالعقل مظاهر كثيرة أسوق منها ما يلي:

1- إن العقل عباد الله، هو مناط التكليف، وخطاب الشرع مُوجَّهٌ إلى العاقل دون غيره. عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنِ الْغُلَامِ حَتَّى يَحْتَلِمَ وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيْقَ» (أخرجه ابن حبان في صحيحه).

والقاعدة الشرعية: إذا أَحَدَ اللهُ ما وَهَبَ سَقَطَ ما وَجِبَ.

2- كثرة ما وَرَدَ في كتاب الله من الآيات التي تتحدث عن العقل ودوره وقيمته مثل عبارات: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾، ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لَأُولِي النُّهَى﴾، ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾... والتي تكررت عشرات المرات.

ومن يتدبر آيات الكتاب العزيز يُلاحظ أن أعمال العقل جاء دائماً بصيغة المَدْحِ والثناء.

3- إن الإسلام جعل العقل طريقاً إلى معرفة خالقه وذلك عبر التَّفَكُّرِ والتَّأَمُّلِ سواء في آيات الله الشرعية كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 82)

أو في آيات الكون وما أودع الله فيه من عجائب المصنوعات، الدَّالَّة على وحدانيته وعظمته وجلاله، وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ عَنِ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس: 101).

قال اللقاني في جوهرة التوحيد:

لِلْعَالَمِ الْعُلُوِّيِّ ثُمَّ السُّفْلِيِّ
لَكِنَّ بِهِ قَامَ دَلِيلُ الْعَدَمِ

فَأَنْظُرْ إِلَى نَفْسِكَ ثُمَّ أَنْتَقِلْ
تَجِدْ بِهِ صُنْعًا بِدِيحِ الْحِكْمِ

سُئِلَتْ أُمْنَا عَائِشَةُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- عَنْ أَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَتْهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةً مِنْ اللَّيَالِي قَالَ: «يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبِدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي» قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّ قُرْبَكَ وَأَحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤَذِّنُهُ بِالصَّلَاةِ فَلَمَّا رَأَهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (آل عمران: 190 الآية كلها)» (أخرجه ابن حبان في صحيحه).

4- من مظاهر اهتمام الإسلام بالعقل أيضا دعوته إلى إتباع الحجة، ونَبَذَ الجَهْلَ والهوى، وترك التعصب والتقليد الأعمى، والخرافات والأوهام، لأنها آفات تُعْطِلُ العقل عن وظيفته المنوطة به، وقد ذَمَّ اللهُ تعالى المشركين الذين عَطَّلُوا عقولهم وقلَّدوا آبَاءَهُمْ فِي الشِّرْكِ وَالضَّلَالِ، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: 170).

وَقَبِيحٌ بِمَنْ أَعْطَى شَمْعَةَ يَسْتَضِيءُ بِهَا أَنْ يُطْفِئَهَا وَيَمِشِي فِي الظُّلْمَةِ (ابن الجوزي - تلبس إبليس).
وعن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَكُونُوا أُمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنًا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا أَنْ لَا تَظْلِمُوا» (رواه المنذري في الترغيب والترهيب وقال: إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما).

5- إن العقل يُعْتَبَرُ إحدى الكليات الخمس التي نَصَبَتِ الشَّرَائِعُ كُلُّهَا عَلَى وَجُوبِ المحافظة عليه، حَفِظْهُ حِسِّيًّا وَمَعْنَوِيًّا، حِسِّيًّا بِالْإِبْتِعَادِ عَنْ كُلِّ مَا يُؤَدِّي إِلَى إِحْقَاقِ الضَّرَرِ بِهِ مِنَ الْمُسْكِرَاتِ وَالْمُخَدَّرَاتِ الْمُحَرَّمَةِ وَالتي تُغَيِّبُ الْعَقْلَ وَتُعْطِلُهُ، وَرَبْمَا تُؤَدِّي إِلَى دِمَارِهِ وَزَوَالِهِ. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِمَّنْ عَمِلَ الشَّيْطَانُ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة: 90-91).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا فَمَاتَ وَهُوَ يُدْمِنُهَا لَمْ يَتَّبِعْ، لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الْآخِرَةِ» (صحيح مسلم).

أما حَفِظَ الْعَقْلَ مَعْنَوِيًّا، فَمِنْ خِلَالِ الْبُعْدِ عَنِ الْمَذَاهِبِ الْمُضِلَّةِ، وَالْعِقَائِدِ الْفَاسِدَةِ، وَالتَّيَارَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الْمُنْحَرِفَةِ، وَالبَيْئَةِ الْمُلوَّثَةِ، وَالْإِبْتِعَادِ عَنِ رُفَقَاءِ السُّوءِ. عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَالْجَلِيسِ السُّوءِ، كَمَثَلِ الْمَسْكِ، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ، فَحَامِلُ الْمَسْكِ: إِمَّا أَنْ يُخَذِّبَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً» (صحيح مسلم).

6- من مظاهر اهتمام الدين الإسلامي بالعقل: أنه دعا إلى التعلم، لأن العلم زاد العقول، فكما أن نُمُوَّ الجسم بالطعام، فإن نُمُوَّ العقل بالعلم، وقد رفع الله أهل العلم، فكانت شهادتهم مُقْتَرَنَةً بِشَهَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالمَلَائِكَةُ الْمُكْرَمِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: 18).

وَبَعْدُ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ التَّأَكِيدِ عَلَى أَنْ رَفَعَ الْإِسْلَامُ لِمَكَانَةِ الْعَقْلِ لَا يَعْنِي أَنْ نَجْعَلَ مِنْهُ مَصْدَرًا لِلتَّشْرِيعِ، أَوْ نَجْعَلَ حَاكِمًا عَلَيْهِ، يَقْبَلُ مِنْهُ مَا يُدْرِكُهُ، وَيَرْفُضُ مَا لَا يَسْتَوْعِبُهُ، فَالَّذِينَ إِنَّمَا يُؤَخِّدُ بِالشَّرْعِ لَا بِالْعَقْلِ، عِلْمًا بِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَبَدًا أَنْ يَقَعَ تَنَاقُضٌ بَيْنَ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ السَّلِيمِ.

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَوْ كَانَ الدِّينُ بِالرَّأْيِ لَكَانَ أَسْفَلُ الْخُفِّ أَوْلَى بِالْمَسْحِ مِنْ أَعْلَاهُ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْسَحُ عَلَى ظَاهِرِ خُفِّهِ (أخرجه أبو داود)

إِنْ الْإِعْتِرَاضُ عَلَى أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ بِدَعْوَى مُصَادِمَتِهَا لِلْمَعْقُولِ ضَلَالٌ مُبِينٌ، وَمَا غَوَايَةَ إِبْلِيسَ إِلَّا مِنْ هَذَا الْإِتِّجَاهِ، حَيْثُ إِمْتَنَعَ عَنِ السُّجُودِ لِأَدَمَ، مُسْتَبِدًّا بِرَأْيِهِ، قَائِلًا أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ، فَانْحَطَّ مِنْ مَرْتَبَتِهِ الْعَالِيَةِ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ، فَكَانَتِ اللَّعْنَةُ عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

قال ابن عباس: أول من قاس إبليس فأخطأ القياس، فمن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس. (تفسير البغوي)

إن العقل أيها الناس محدود الطاقات، لا يستطيع أن يدرك كل الحقائق مهما أوتي من قدرة على الفهم والاستيعاب، ولذا فإن دوره مع الشرع هو الإمتثال، حتى ولو لم يدرك الحكمة، فهو مع وحي الله وهُداه بصير، ويترك وحي الله وهُداه أعمى، ولَمَّا عَلِمَ اللهُ تَعَالَى هَذَا كُلَّهُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ، قَضَتْ حِكْمَتُهُ وَرَحْمَتُهُ أَنْ يُرْسِلَ الْكُتُبَ، وَيُرْسِلَ الرُّسُلَ، هِدَايَةً لِلْعِبَادِ، وَعِصْمَةً مِنَ الْمَهَالِكِ، وَقَطْعًا لِلْعُدْرِ، إِذْ لَا حُجَّةَ لِأَحَدٍ بَعْدَ بَيَانِهِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: 115)

ومن أطرف ما قرأتُ في بيان فضل العلم -وهو الشرع والوحي- على العقل هذه المحاوراة التالية بينهما:

مَنْ ذَا الَّذِي مِنْهُمَا قَدْ أَحْرَزَ الشَّرْفَا

وَالْعَقْلُ قَالَ: أَنَا الرَّحْمَنُ بِي عُرْفَا

بِأَيِّنَا اللَّهُ فِي فُرْقَانِهِ إِتَّصَفَا

فَقَبَّلَ الْعَقْلُ رَأْسَ الْعِلْمِ وَأَنْصَرَفَا

عِلْمُ الْعَلِيمِ وَعَقْلُ الْعَاقِلِ اِخْتَلَفَا

فَالْعِلْمُ قَالَ: أَنَا أَحْرَزْتُ غَايَتَهُ

فَأَفْصَحَ الْعِلْمُ إِفْصَاحًا وَقَالَ لَهُ

فَبَانَ لِلْعَقْلِ أَنَّ الْعِلْمَ سَيِّدُهُ

إخوة الاسلام

إن الناظر في كتاب الله -عز وجل- يتأمل، يرى أن كثيرا من آيات القرآن تدل على قيادة النقل للعقل، وتوجيهها له، مثل قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس: 77-79)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل، ففتنه بيده، فقال يا محمد، أحيي الله هذا بعد ما أرى؟ قال: «نعم، يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم»، فنزلت الآيات (يس: 77-79) (رواه الحاكم وصححه).